المحاضرة الخامسة	قضية التقليد والتجديد في العصر العباسي	البحتري/أبونواس/أبو تمام

مراجع المحاضرة:

- وحيد صبحي كبابة: الخصومة بين الطّائِيّيْن وعمود الشعر العربي الجزء والصفحة : ص18-22
- وحيد صبحي كبّابَه الصُّورَة الفَنِّيَّة في شِعر الطَّائِيَّيْن، اتحاد كتاب العرب.

تعد قضية التجديد[1] من قضايا الشعر العباسي الخطرة، فهي قضية تطوره وتغير مفهومه وطبيعته وعناصره الشكلية والموضوعية. وقد اكتسبت هذه القضية أهميتها الخطيرة كونها تحولت إلى مسوغ أساسي لتغير أي من مقومات الشعر، ولا أستثني من ذلك كيان الشعر كله. وصارت عند بعض المتنطعين غاية وهدفاً.

ولعل موازنة بين الطائيين توضح لنا الفارق بين الفكرة الصادرة عن انفعال والفكرة المدفوعة بالحركة العقلية. أو بين أطروحتي التجديد والتقليد، يبدأ أبو تمام قصيدته في عمورية بالحكمة فيقول:

---

(1) يعتبر مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تنازعتها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة، وقد انعكس هذا التنازع على المفهوم ذاته من حيث معناه ودلالاته، وواقعيًا يصل الباحثون لمسلَّمة هي أن التجديد –على المستوى النظامي والحركي– قد تُخفق أهم جهوده نظرًا لعدم وضوح التأصيل الفكري والمنهجي لعملية التجديد في تأكيد واضح على أهمية الربط بين النظرية والفاعلية في مجال التجديد الحضاري.والتجديد في اللغة العربية من أصل الفعل "تجدد" أي صار جديدًا، جدده أي صيّره جديدًا وكذلك أجدّه واستجده، وكذلك سُمِّي كل شيء لم تأت عليه الأيام جديدًا، ومن خلال هذه المعاني اللغوية يمكن القول: إن التجديد في الأصل معناه اللغوي يبعث في الذهن تصورًا تجتمع فيه ثلاثة معانٍ متصلة:
أ–أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجودًا وقائمًا وللناس به عهد.
ب– أن هذا الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديمًا.
جـ– أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق.ولقد استخدمت كلمة جديد – وليس لفظ التجديد– في القرآن الكريم بمعنى البعث والإحياء والإعادة –غالبًا للخلق–، وكذلك أشارت السنة النبوية لمفهوم التجديد من خلال المعاني السابقة المتصلة: الخلق– الضعف أو الموت–الإعادة والإحياء. ويعتبر حديث التجديد [عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله– (صلى الله عليه وسلم" :(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها "رواه أبو داود :[
ينظر:سيف الدين عبد الفتاح:التجديد
http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic_articles/ARenaissance/Renovation.htm

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ في حدّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ[1]

ويبدأ البحتري قصيدته في إيوان كسرى بالحكمة أيضاً، فيقول:

صنتُ نفسي عمّا يدنّسُ نفسي وترفّعتُ عن جدا كل جبسِ

وتماسكت حين زعزعني الدهرُ (مُ) التماساً منه لتعسي ونكسي(2)

إننا إذ نشعر بأدق خلجات روح البحتري الحزينة في حكمته فيهزّنا في أعماقنا، لا يكاد يتجاوز هذا الإحساس العقل في قراءتنا لحكمة أبي تمّام. وما سبب ذلك إلاّ أن الأول صادر عن تجربة شخصية فامتزج شعوره بفكرته، على حين كانت حكمة الثاني مستقاة من ثقافته مدفوعة بعقله. وواضح تفوّق البحتري على أبي تمام في هذا المجال.

عمود الشعر وعلاقتها بفكرة التقليد والتجديد بين أبي تمام والبحتري:

يلخّص المرزوقي في مقدمة شرحه ديوان الحماسة لأبي تمام عناصر "عمود الشعر" فيقول: "إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف- ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كَثُرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات -والمقاربةَ في التشبيه، والتحامَ أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدّة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر"[3].

هذا هو عمود الشعر في صورته المكتملة كما حدّده المرزوقي، وهو "خلاصة الآراء النقدية في القرن الرابع، (وهو إن) لم يكن.. الصيغة التي اختارها شعراء العربية، (فإنه) الصورة التي اتفق عليها النقاد"[4]. لهذا نرى أن الوقوف عنده يعطينا تصوراً كاملاً لطبيعة الخلق الشعري عند النقاد العرب، ولا بدّ لنا في هذا المقام أن نشير إلى أنّ خصائص عمود الشعر العربي كانت أثراً لازماً عن الخصومة القائمة بين الطائيّين. وإذا كانَ المرزوقي قد حدّد

(1) ديوان أبي تمّام 40/1.

(2) ديوان البحتري 1152/2.

(3) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 9/1.

(4) تاريخ النقد لعباس 405.

عناصر العمود وشرحها، فإن الآمدي هو أوّل من أتى بهذا المصطلح[1].

أما القضايا التي يثيرها "عمود الشعر"، فيمكننا إجمالها في ثلاث: الوضوح، والصدق، والطبع. وهذه القضايا الثلاث هي المعايير والقيم التي ينبغي تحققها في الشعر، ليُحكَم للشاعر بالجودة والتقدّم.

أبو تمّام الطائي:

هو حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية جاسم بقرب دمشق ، وتعدّدت الروايات في سنة ولادته ، ألاّ أنّه نسب إليه أنّه قال : ولدت سنة (190هـ) . والآراء متضاربة في صحّة نسبه من طيء . وظنّ (مرجليوث) في ترجمته له بدائرة المعارف الاسلامية أنه ربمّا كان اسم أبيه محرّفا عن (تيودوس) ، وبنى ((الدكتور طه حسين) على هذا الظنّ أنّه يوناني الأصل ، بينما ذهب (بروكلمان) الى أنّ اسم (تدوس) يشيع بين نصارى السريان ، ونصرانية أبيه – إن صحّت – لا تنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهور مَن ترجموا له من الثقافات يذهبون الى أنّه طائي صليبة، ويشهد لذلك فخره بطيء ، وأنّه اختار منها أكثر ممدوحيه ، وكذلك اختياراته جاءت فيها قصائد لخمسين شاعر طائي في حماسته الكبرى ، أمّا وحشيّاته فممتلئة بالطائيين ، ثم ان الاسم لا يمكن أن يكون دليلا أو محددّا لقومية الشاعر، ذلك كلّه يدلّ على أنّه طائي عريق وعربي أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضاً في نشأته ، فقيل أنّه نشأ بمصر يسقي الناس الماء في مسجدها الكبير ، وأكثر المؤرخين له على أنّه نشأ بدمشق وأنّ أباه كان عطّاراً فيها وأنّه ألحقه بحائك كي يحسن حياكة الثياب . وأخذ يختلف الى حلقات المساجد ينهل ممّا كان يجري فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، فأخذ يتنقل من مدينة الى أخرى مادحاً بعض الشخصيّات فيها الى أن حلَّ في بغداد بعد وفاة (المأمون) سنة (218هـ) ليجد حظوة عند (المعتصم) وعند اعيان الدولة .

ولم يطل مقامه في بغداد ، إذ سرعان ما ارتحل الى (عبد الله بن طاهر) في ولايته الجديدة على خراسان، واستقبله هو ومن حوله من الشعراء والكتّاب استقبالا حافلا ، ومدحه بقصيدته (هنّ عوادي يوسف وصواحبه) ، وقد مدح عددا من رجال الدولة وقوادها وعمّالها . انتقل بعد ذلك الى همذان ونزل ضيفا على (أبي الوفاء بن سلمة) ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهرا ، فأكبّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب (الحماسة) وهو مطبوع مراراً ، وطبع له شرحان : شرح التبريزي ، وشرح المرزوقي وسمّيت هذه بـ (

(1) المرجع نفسه 159.

الحماسة الكبرى) وهناك بجانبها (الحماسة الصغرى) أو المسماة بـ(الوحشيّات) وهذه الاختيارات تدل على أمرين : هما سعة حافظة الشاعر من الموروث الشعري ، وكذلك دقّة ذوقه ومعرفته بالشعر وثقافته الواسعة .

وكان أبو تمام أسمر طويلا ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتّخذ غلاما لإنشاد شعره بين يدي المعتصم وغيره . ويقال إنّه كان من أكثر الناس مزاحا ، تسعفه في ذلك بديهة حاضرة، وتوفي الشاعر سنة (231هـ).

وللشاعر قصيدة تشتهر بقصيدة (فتح عمورية) ، نظمها الشاعر بعد انتصار الخليفة المعتصم على الروم وفتحه لمدينة عمورية في بلاد الروم ، فهي قصيدة تدخل في باب المديح وفي قصائد الحرب ، كما انها أشهر قصائد أبي تمّام على الإطلاق ، وهي تقع في(71) واحد وسبعين بيتا ، وهي مليئة بالمعاني الدقيقة والافكار العميقة ، ومن قوله فيها :

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ في حدّهِ الحدُّ بين الجدّ واللّعِبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ متونِهِنَّ جِلاءُ الشّكّ والرّيَبِ
فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تفتّحُ أبوابُ السماء له وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ
يا يومَ وقعةِ عمّوريّة انصرفتْ منكَ المُنى حُفلاً معسولةَ الحَلَبِ
أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صَعَدٍ والمشركينَ ودارَ الشّركِ في صَبَبِ
أمٌّ لهم لو رَجَوا أن تُفْتَدى جعلوا فِداءَها كلّ أُمٍّ منهمُ وأبِ
وبرزةُ الوجهِ قد أعيَتْ رياضَتُها كسرى وصَدّتْ صدودا عن أبي كَرَبِ
بِكْرٌ فما افترعَتْها كَفُّ حادثةٍ ولا ترقّتْ اليها هِمَّةُ النّوَبِ
من عهدِ اسكندرٍ أو قبل ذلك قد شابتْ نواصي الليالي وهي لم تَشِبِ

من مميّزات شعر أبي تمّام دقّة المعاني وعمق الافكار ، والواقعية وسعة الخيال ، والمبالغة ، والكثرة من استخدام الأدلة المنطقيّة، وكثرة المحسنات المعنوية ، وكثرة الاشارات التاريخية في شعره ، وبروز الفلسفة والمنطق ، والغموض ، والحكمة .

البحتري هو أبو عبادة الوليد بن عبيد ، طائيّ الأب شيباني الأم ، غلب عليه لقب البحتري نسبة الى عشيرته الطائية ، بحتر ، ولد سنة 204هـ بمنبج الى الشمال الشرقي من حلب على الطريق المؤدية الى الفرات ، توفي سنة 284هـ .

وليس لدينا أخبار عن هيأته وصورته إلاّ ما روي عنه من أنّه كان أسمر طويل اللحية . وقد نشأ في أحضان عشيرته يتغذّى من فصاحتها ويبدو أنّه اختلف مبكرا الى الكتاّب ، فحفظ القرآن ، أو شطراً كبيراً منه، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبّ الى حلقات العلماء في المساجد يأخذ عنهم اللغة وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام ، واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه في بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته ، وامتدّ به طموحه فتجاوز به بلدته الى بلاد أكبر من حولها ، إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرّف على (علوة) التي شغفته حبّا .

واتسع برحلاته الى حمص ، وكأنّما كان السعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأنّ أبا تمّام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه وقال له : أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك ؟ فشكا إليه سوء حاله ، فكتب الى أهل معرّة النعمان بشاعرية البحتري وطلب منهم أن يكرموه فأكرموه واستقبلوه استقبالاً حسناً ووظفوا له أربعة آلاف درهم .

ومن صفات البحتري أنّه عديم الوفاء كافر للإحسان ، فحين يقلب الدهر معروفه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت، نراه يسارع الى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء المال والنفع ، مثل موقفه مع الخليفة المستعين الذي هجاه هجاء مقذعا بعد أن كان يمدحه وينال جوائزه .

وقد مدح البحتري عددا من الخلفاء العباسيين ، ولكن الخليفة (المعتز) كان أقربهم الى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمنه ، ومدح معه ابنه (عبد الله) وتوثّقت بينهما الصداقة .

وكان البحتري قد أثرى ثراء فاحشاً منذ عهد المتوكل ، فانه نثر عليه أموالاً جمّة واقطاعات عديدة ، فضلاً عمّا أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، إلاّ أنّه عى الرغم من ذلك كان شديد الطمع والالحاح في الطلب .

وكان لا يبارى في ثقافته بالشعر ، ممّا جعله يضع فيه ديوان الحماسة مشابهة لاستاذه أبي تمّام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إنّ له كتابا ثانيا في معاني الشعر ، غير أنّ هذا الكتاب سقط من يد الزمن ، والكتاب الأول كافٍ في تصوّر إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير ، وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، ممّا أتاح له ثقافة شعرية واسعة ، إلّا أنّه لم يُخْضِعْ شعره للمنطق والفلسفة كأبي تمّام ، وكان هو بنفسه يصرّح بذلك . وهناك ظاهرة مهمّة في شعره وهي أنّه جارى أستاذه أبا تمّام في الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره .

ولكن اذا كان البحتري لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدىً مقابلا لا يقلّ روعة ، وهو مدى الجمال الصوتي البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس ، بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعته الى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحتري ، فقد عاش يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل الى المعتضد ووزارءهم وولاتهم وقوادهم وكتّابهم ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين، وأن يتغنّى بذلك في أشعاره ، حتّى يثبت ولاءه لهم وأنّه يقف في صفوفهم مدافعاً عنهم بمثل قوله للمتوكل :

شَرَفًا بني العباس إنّ أباكمُ عَمُّ النبيّ وعِيصُهُ المُتَفَرّعُ

إنّ الفضيلةَ للذي استَسْقى به عُمَرٌ وشُفّع إذ غَدا يَسْتَشْفِعُ

وأرى الخلافةَ وهي أعظمُ رتبةً حقًّا لكم ووراثةً ما تُنْزَعُ

أعطاكموها اللهُ عن علمٍ بكم واللهُ يعطي مَنْ يشاءُ ويَمنعَ

فالعباس جدّ العباسيّين وعمّ الرسول (صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم) من العيص ومنبت الشجر الضخم ، ويريد أنّه من الأصول بينما الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من الفروع .

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إمّا الى حرمانه من جائزة ، وإمّا الى كفران صنيعة عند بعض معاصريه ، وإمّا الى منافسة بينه وبين الشعراء ، ولا سيما من كان منهم يتعرّض لشعره بالذمّ والنقد اللاذع.

وبالمثل الفخر عند البحتري ضعيف ، وهو حقاً يفخر في بعض قصائده بآله وعشيرته بحتر وقبيلته طيء ناعتا لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر ذلك عن ايمان قوي بالمجد ، وكأنّما كانت عصبيّته القبليّة ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته ايضاً ضعيفاً ، ومثال ذلك قصيدته في إيوان كسرى وبكاؤه لأمجاد الفرس .

وهو كذلك يعدّد طائفة من هؤلاء الملوك الفرس وفي مقدّمتهم يزدجرد ، وكسرى وأردشير ، ويصوّر ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير ، وحتّى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحتري ، إذ امتدح كثيرين من النصارى .

واشتهر البحتري بإجادته للغزل ، ومرَّ بنا أنّه أحبّ في شبابه (علوة) الحلبية ، وظلّت ذكراها لا تبارحه، وظلّت تستولي على قلبه ، وكانت قد صَبَتْ إليه كما صَبَا إليها وبادلته ودّاً بود .

وكانت لدى البحتري قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أُتِيحَ له من دقّة في التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصرا بناه المتوكل دون أن يصفه موجزا أو مسهبا، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور ، ومرّ بنا وصفه لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز .

التقليد والتجديد من منظور نقدي: لعلّ هذه القضية أبرز القضايا التي كانت المناقشة تدور حولها بين طرفي النزاع. فالبحتري أشعر من أبي تمام لأنه " أقوم بعمود الشعر " [1]، أي لأنه على مذهب القدماء. أما أبو تمام، فهو أشعر في نظر أنصاره، لأنه خرج على عمود الشعر.

إن معيار الصراع بين الفريقين، إذا، هو طريقة الأوائل، أو ما يسمّى بعمود الشعر. ومدى اقتراب الشاعر من هذه الطريقة أو ابتعاده عنها، هو مقياس الحكم عليه بالتقديم أو التأخير. والمفارقة الطريفة في هذا المجال، هي أن ما يُعدّ سبباً في تقدم الشاعر عند طرف، هو نفسه سببُ تأخيره عند الطرف الآخر، والعكس صحيح. [2]

لقد احتجّ أنصار أبي تمام، في تقديم صاحبهم، بأنه عنه " أخذ البحتري وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى"[3] وقد اعترف البحتري نفسه " بأن جيّد أبي تمام خير من جيّده " [4]

والحجة الثانية لأنصار أبي تمام، هي أن صاحبهم انفرد بمذهب ابتدعه، وليس كذلك البحتري. يقول أدونيس: " والنقطة الثانية التي يحتج بها أنصار أبي تمام، هي انفراده بمذهب أخترعه وتأثر به جميع الشعراء الذين أتوا بعده، فكان لهم إماماً وكانوا له تابعين [5] وليس للبحتري مثل هذا التفرّد وهذا التأثير".

ويناقش أنصار البحتري هذا الكلام، فيردّون على الحجة الأولى، بأن البحتري " ما صحب أبا تمام ولا تتلمذ له ولا روى ذلك أحدٌ عنه، ولا نقله، ولا رأى قط أنه محتاج إليه " [6] وإذا كان البحتري قد استعار بعض معاني أبي تمام، فهذا يعود إلى " قرب البلدين، وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعر أبي تمام، فيُعلّق شيئاً من معانيه،

---

(1)الموازنة 21/1، 18.

(2)ينقل التوحيدي عن ابن المعتز قوله في رسالة يذكر فيها محاسن أبي تمام ومساوئه: "سهّل الله عليكم سبيل الطلب، ووقّاكم مكاره الزلل فيما رأيت من تقديم بعضكم الطائي على غيره من الشعراء أمراً ظاهراً، وهو أوكد أسباب تأخير بعضكم إيّاه عن منزلته في الشعر لما يدعو إليه اللجاج... " البصائر والذخائر 2/ 698، تح: إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، دمشق، د. ت.

(3)الموازنة 1/ 6، 55

(4)المصدر نفسه 6/1

(5)أنظر الموازنة 13/1، وأخبار أبي تمام 37.

(6)الثابت والمتحول 185/2.

معتمداً للأخذ أو غير معتمد. وليس ذلك بمانع من أن يكون البحتري أشعر منه. فهذا كثيّر قد أخذ عن جميل، وتَلْمَذَ له، واستقى من معانيه، فما رأينا أحداً أطلق على كثيّر أن جميلاً أشعر منه، بل هو أشعر من جميل"[1]ويتابع أنصار البحتري ردّهم على الحجة الأولى، بقولهم: " وأمّا قول البحتري: " جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه "... فهو للبحتري، لا عليه؛ لأن قوله هذا يدلّ على أن شعر أبي تمام شديد الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوي الشعر أولى بالتقدمة من المختلِف الشعر... " [2]

أما الحجة الثانية التي تقول بانفراد أبي تمام بمذهب اخترعه، فيردّ عليها خصومه، بأنه ليس " أولاً فيه، ولا سابقاً إليه، بل سلك في ذلك سبيل مسلم بن الوليد، واحتذى حذوه، وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف والسنن المألوف " [3]وأصول هذا المذهب " منثورة متفرقة في أشعار المتقدمين... وفي كتاب الله عزّ وجلّ " [4] وكلّ ما فعله أبو تمام، هو أنه تبع هذا المذهب وأكثر منه " وأحبّ أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الأصناف، فسلك طريقاً وَعْراً، واستكره الألفاظ والمعاني، ففسد شعره، وذهبت طلاوته، ونشف ماؤه"[5]

هذان الجانبان كانا سبباً مهماً في نشوء قضية السرقات الأدبية. فخصوم أبي تمام، وهم يردّون على حجة أنصاره بسبقه في مذهبه، راحوا يبحثون عن أصول هذا المذهب في القديم، وعن سرقات خصمهم ممن تقدمه. وفي كتاب " الموازنة" نماذج كثيرة لسرقات أبي تمام من غيره [6]، كما أفرد أحمد بن أبي طاهر كتاباً في سرقات أبي تمام، في " الموازنة " نماذج منها [7]

وقد كان على أنصار أبي تمام أيضاً، وهم يصمون البحتري بسرقة معاني صاحبهم، أن يدللوا على دعواهم بالشواهد، مما قادهم إلى البحث عن سرقات البحتري من أبي تمام؛ فألّف أبو الضياء بشر بن يحيى كتاباً في

---

(1)الموازنة 7/1

(2)المصدر نفسه 8/1، 9

(3)المصدر نفسه 11/1

(4)المصدر نفسه 14/1

(5)المصدر نفسه 14/1

(6)المصدر نفسه 17/1-18

(7)المصدر نفسه 58/1 وما بعد

سرقات البحتري من أبي تمام [1]ودراسة سرقات البحتري من أبي تمام قادت أنصار الأخير إلى دراسة سرقات الأول من غيره من الشعراء أيضاً [2]

لقد أكدّ أنصار القديم أنّ "كتابة الشعر، بالنسبة إلى الشعراء اللاحقين، نوعٌ من التفريع على الشعر القديم، والاشتقاق منه. وما النقد إلاّ دراسة هذا التفريع وهذا الاشتقاق قياساً على أصولهما " [3] هذا على حين رفض المجددون "كلّ مالم يَعُدِ القصد منه يتطابق مع الحياة المستجدّة، وأكدوا على (كذا) التفردّ والسبق والكشف في الشعر. وبذلك يصبح النقد إضاءة التفرّد والسبق والكشف، بحيث لايستمدّ أصوله النقدية من نصوص مَضَت، وإنما يستمدّها من النصوص المتفرّدة السبّاقة الكاشفة ذاتها. فكلّ تعبير جديد يفترض معايير جديدة أي نقداً جديداً " [4]

إنّ كلاّ من الفريقين المتخاصمين انطلق في حججه من التشبث بالماضي، وإن بدا الأمر غير ذلك. فأنصار الحديث يريدون أن يثبتوا أن لمذهبهم أصلاً في القديم، أما أنصار القديم فيردّون على خصومهم بأن تجديدهم في البديع مسبوقون إليه، وهو شائع بين الناس قبلهم [5]

وعلينا أن نشير هنا إلى أن الخصومة في بعض جوانبها، لم تعارض المحدثين لحداثتهم، بل تناولت طريقة المحدثين في التجديد. فالبحتري قُبل لأنّ مذهبه وافق مذهب الأوائل، أما أبو تمام فرُفض لأن مذهبه خالف مذهب الأوائل[6]

إن هذه القضية من أهم القضايا التي أثارتها الخصومة، لأنها أساس هذه المعركة. فطريقة الأوائل هي معيار الصراع بين الفريقين، ما شابهها حُكم له، وما خالفها حُكم عليه. فانطلقت المناقشات تحتجّ وتردّ، تهاجم وتصدّ، وثار غبار كثيف كان له فضل على الحركة النقدية الأدبية عند العرب. فالموازنات ومشكلة السرقات، ممّا زخرت به

---

(1)المصدر نفسه 112/1 وما بعد

(2)المصدر نفسه 324/1

(3)الثابت والمتحول 17/3-18

(4)المرجع نفسه 18/3، وانظر أيضاً 179/2 الفقرة الثالثة.

(5)انظر الأعرجي: الصراع بين القديم والجديد 125-130

(6)المرجع نفسه 57 -ولنا أيضاً في أبي رياش القيسي شاهد على ما نقول. فقد كان هذا الرجل من ألدّ أعداء أبي تمام والبحتري، لكنه حين سمع شعراً للبحتري، استحسنه لأنه مطبوع ورجع عن رأيه. فموقف هذا الراوي يدلنا على أن الخصومة كانت حول المذهب، لا حول أشخاص المحدثين، فهو يقبل البحتري لا لأنه محدث، وإنما لأنه مطبوع على مذهب الأوائل. (انظر خبر أبي رياش في: الوساطة 51-52) هذا في حين نجد أخباراً أخرى عن استهجان العلماء الشعر بعد استحسانهم له، حين يعلمون أنه لأحد المحدثين.

كتب التراث، مظهر بارز من مظاهر تلك الخصومة، إن لم يكن أبرزها. وكلها يبحث عن أصالة الشاعر وتفرّده وتميّزه بالنسبة إلى خصمه من جهة، وإلى المتقدمين من جهة أخرى.

إن عنوان أدبية النص وشاعرية الشاعر، هو التفرّد والأصالة. وكل ما ينقضهما، كالسبق والسرقة والتلمذة، يحطّ من شأن الشاعر، وينقص من أدبية أدبه.

وتستوقفنا في هذه المناقشة أمور في غاية الأهمية، نذكر منها ملاحظة أنصار البحتري أثر قرب بلدّي الشاعرَيْن في تشابه معانيهما، مما لا يطعن في شاعريتهما، ولا في أدبية شعرهما. كما تستوقفنا مناقشة الطرفين لصلة الشعر بالقديم، مما يدفعنا إلى القول إن أي تجديد شعري، إنما ينبغي أن ينطلق من الجذور، فيكون الجديد جديداً بمقدار ما فيه من تجاوز للقديم، من دون انقطاع عنه. فإذا كانت أدبية شعر البحتري تكمن في تقيّده بعمود الشعر – نسبياً –، فإن أدبية شعر أبي تمام، تكمن في خلقه مذهباً جديداً، أصوله البديعية مبثوثة في شعر القدماء. وإنما تجديده يكمن في في خلقه مذهباً جديداً، أصوله البديعية مبثوثة في شعر القدماء. وإنما تجديده يكمن في وقوفه عند هذه النماذج وتطويرها وتركيبها، ممّا جعله خالقاً لمذهب جديد غير مألوف.

ولابدّ من الإشارة، هنا، إلى أن الإغراق في نعت البحتري بالتقليد يغمطه حقه، فهو الآخر كان مجدّداً، وللبديع أثره الواضح في شعره. وإنما شروط الموازنة بينه وبين أبي تمام، جعلته يبدو مقلّداً، فأخمدت بريق صوره وبديعه وتجديده.

السؤال الإجمالي: يعد كتاب الموازنة للآدمدي مرآة للصراع بين مقولة التجديد والتقليد
ناقش القول: معززا ما تذهب إليه بشواهد شعرية